مدام دى ستال ونابليون

بقلم الاستاذ عبد العزيز الشربينى
ليسانسيه فى الاجتماع والاقتصاد السياسى

عند ما هبط نابليون أرض فرنسا ، ووصل إلى باريس فى ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ليقدم إلى حكومة الادارة معاهدة (كامبو فورميو) ، أرسل (ياوراً) من قبله إلى المسيو (دى تاليران) ـ وزير الشئون الخارجية وقتئذ ـ ليلتمس منه موعداً للقاء ... وقد رأى (دى تاليران) أن يكون الموعد فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالى،ثم رأى بعد هذا ان يكاشف صديقته (مدام دى ستال) بذلك لتكون معه فى استقبال القائد بونابرت ...

ولقد تعرفت (مدام دى ستال) شوقاً ، وتمجلت الساعات،وصورت لنفسها تلك الروعة التى ستبدو على القائد الصغير الكبير الذى كان على إمرة الجيوش فى إيطاليا ، والذى عاد منها مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، متوجاً بالانتصار وأكبر الفخار ... وحق لمدام دى ستال أن يكون تقديرها له وشغفها به هكذا ، فلقد كان فى الثامنة والعشرين من عمره، فى مليمة رجال الحرب فى أوروبا جمعاء ..كان بونابرت موضع إعجاب الجميع لجرأته وزاهته وتواضعه وتعشقه للحرية ، ولقد كان أيضاً دائم الاصطحاب ، كثير الاعجاب بالفلاسفة والشعراء ، وحق لـ (جارات Garat) أن يقول عنه : « إنه كان فيلسوفاً يقود الجيوش !! » .

أضرمت شهرة نابليون خيال (مدام دى ستال) ؛ إذ كانت محبة للجاه إلى أقصى حد؛ولقد كانت العظمة تجذبها وتستميلها فى مثل قوة المغناطيس وقهره ... وقد تعجب إذا علمت أن (مدام دى ستال) هذه كانت تراسل (نابليون) فى إيطاليا دون أن يتم التعارف بينهما ؛ وقد يزداد بك العجب حين تعلم أنها ما كانت تراسله فى الأمور العامة ، بل تراها قد تناولت فى جرأة نادرة أموراً خاصة ما كان ينبغى لها أن تتزلق إليها ... فقد كتبت لـ (نابليون) ، وقد علمت أنه مشغوف بزوجته ، كتبت إليه تقدح فى هذه الزوجه وتمدح (نابليون) ، وتحاول أن ترفع من شأنه وتظهره على أن هذا النوع من النساء لا يستطيع أن يفهمه أو يقدره ، وهذا ـ على ما أرى وعلى ما يؤدى إليه الاستنتاج العادى ـ ضرب من ضروب الاستهواء والاغراء التى تقصد بها أن تلفته إليها ليرى نوعاً آخر من النساء على استعداد لأن يفهمه ويقدره .

هذه الرسائل التى كانت تخطب فيها (مدام دى ستال) ود نابليون ، والتى كانت تصارحه فيها بكل شىء ، تكلم عنها (بورين Bourienne) ، إذ كان القائد يطالعه بنبذات منها ضاحكا قائلا له :

« بورين ! ألا ترى شيئاً فى كل هذه الحماقات ؟ هذه المرأة مخبولة ..!! » ، ثم يعود بعد هذا فيقول : « وعلى كل حال فهى امرأة رائعة اللب ، خافقة القلب على مثال جوزفين ...!! بورين ! لا أود أن أرد على مكاتبات كهذه ..!! » .

كانت (مدام دى ستال) إذن ـ فيما ذكرنا وفيما سنذكره بعد ـ شديدة الاعجاب بنابليون ، وكان لا بد لنابليون إزاء ذلك من أن يلاطفها ويصانعها ، إذ كان يرى فيها القوة والبأس ، وكان عليه أن يخشاها ويحذرها ، إذ كان يتوقع منها المكر والغدر بوسيظهر فيما يلى ـ وعند المقابلة الأولى ـ كيف كان نابليون حريصاً متحفظا معها .

عاد نابليون إلى فرنسا ، وقد كانت رحلته خلال سويسرا ذات مظهر رائع ، إذ تمثل فيها القائد القاهر ، والانتصار الساحر ، وإذ تجمع الشعب السويسرى هنا وهناك على جنبات الطرقات صفوفاً تتدافع لا تستقر على حال ، قد أخذت عليها حفزات الشوق والاكبار كل مظهر من مظاهر الثبات والوقار ... كان الشعب يهتف ، وكانت المدافع تقصف ، وكانت الوجوه ـ يومئذ ـ ناضرة ، وكان الاحتفال ـ إن أردت الوصف إيجازاً ـ عيداً مشهوداً .

تلقت (مدام دى ستال) الخبر من (تاليران) عن لقاء نابليون ، وفى الموعد المضروب ، بل فى اليوم الموعود نهضت مسرعة إلى الوزارة ـ حيث المقابلة بين نابليون وتاليران ـ ، فوصلت إليها الساعة العاشرة ، وظلت ساعة فى (صالون تاليران) ترتقب قدوم القائد العظيم بونابرت ، وما كانت الساعة الحادية عشرة وعلم (تاليران) بوصول القائد ، حتى خف فجأة إلى استقباله مرحباً به ، ثم دخل نابليون بعدئذ ، فتراءى أمام (مدام دى ستال) رجلا قصيراً نحيلا شاحباً متعباً (١) ، وانتهز (تاليران) هذه الفرصة ، فقدم لنابليون (مدام دى ستال) فالتفت إليها بقليل من العناية ـ كما قال (تاليران) نفسه ـ ، وكأن نابليون قد قطن إلى تلك المقابلة الباردة الجامدة ، فرأى أن يرفه عليها فيبدى لها أسفه ، إذ أنه حين مر على سويسرا سأل عن أبيها بقصر الـ (كوبيه Coppet) ، ولكنه لم يوفق إلى لقائه ... ثم التفت فجأة إلى (بوجانفيل Bougainville ـ أحد الحاضرين ـ قاصداً عامداً أن يقطع الحديث معها لئلا يقال

(١) ارسل نابليون خطاباً فى اول اكتوبر سنة ١٧٩٧ الى تاليران يقول فيه : « استطيع بكل عناء ان اعتطى الجواد ولكنا ترانى فى حاجة الى الراحة عامين كاملين.

إنه أفرط فى تقديرها ؛ وهكذا ظلت (مدام دى ستال) بعد هذا صامتة مضطربة تكاد تحتبس أنفاسها لأول مرة فى حياتها .

دخل نابليون مجلس الوزراء ، وما أن خرج منه حتى وجد (الصالون) قد ضاق على رحبه بالناس ، ورأى إزاءه ذلك أنه مضطر إلى أن يلقى كلمة حماسية شهد هو بعينه كم أثارت من إعجاب .

هذه أول مقابلة بين (مدام دى ستال) ونابليون ، وليس من شك فى أن كلا من هاتين الشخصيتين المتنازعتين كانت تحاول أن تسيطر على الأخرى ... إحداهما كانت تهاجم وتود الانتصار ، والأخرى كانت تدافع فى ثبات وإصرار .

بين الشخصيتين إذن حرب صامتة ، وحملات خافتة فيها حذر وفيها إغراء بالأمل ورد للخطر .

وأتاحت الظروف (لمدام دى ستال) أن ترى نابليون مرة أخرى فى ١٠ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ـ بعد المقابلة الأولى بأربعة أيام ـ عند ما استقبلته حكومة الادارة استقبالها الباهر فى بهو (لكسمبرج) ، حيث انتصب هيكل الوطن تزينه الأسلاب والغنائم والأعلام التى أحرزها جيش إيطاليا ، وحيث ترى أعضاء حكومة الادارة هاشين باشين مرحين فى لباسهم الرومانى . وفى انتظار ذلك القائد الكبير . وحيث تسمع الموسيقى توقع ألحاناً وطنية حماسية ، ثم يقدم بعد ذلك نابليون تحت أقواس يتصاعد الهتاف إليه ، وتسرى الأنغام حواليه ، يسير فى رفقة من كبار ضباطه ، وإن يكن أقلهم طولا ، فقد تصاغروا وتقاصروا بانحنائهم له : وإعجابهم به ... وكانت الكلمة لـ (تاليران) ، فوقف يكرم ـ على حد قوله ـ (ذلك الحب النهم من أجل الوطن والانسانية) . ثم عزا إلى ذلك الحب انتصار فرنسا وانحسار عدوها الخصيم ، وعزا إلى ذلك الحب أيضاً تواضع نابليون ومقته لكل دعاية للزهو والكبرياء ... وانتهى (تاليران) وأجاب عنه نابليون بتقديمه معاهدة الصلح التى أبرمت فى (كامبوفورميو) إلى أعضاء حكومة الادارة ؛ ثم كان الدور بعد هذا لـ (باراس Barras) ، فقال مهنئاً إياه باسم حكومة الادارة : « إن قلبك الخافق لهو هيكل الشرف الجمهورى » ، وما كاد ينتهى حتى أقبل الأعضاء على نابليون يعانقونه ويثنون عليه ، وفيما هم كذلك انبجرت أنشودة (شنييه Chénier) تمجد فرنسا .

انتهت الحفاوة . وانقضى التكريم ، وانفرط عقد هذا الجمع الحاشد ؛ وقد لا تجد أحداً أوعى لهذه الذكرى ولا أحرص على الاعجاب بنوتابرت من (مدام دى ستال) التى ـ على حد قول بعضهم ـ كانت تدين له بنوع من العبادة ؛ وقد تقتنع بذلك القول ولا تعده مبالغة أو إسرافاً فى التعبير إذا رأيت (مدام دى ستال) حاضرة مائلة فى الولائم والمراقص والحفلات الرسمية

وغير الرسمية التى كان يحضرها بونابرت ، وإذا علمت أنها قد دعته مرة إلى حفلة رقص فى بيتها ، ومع أنه اعتذر إليها ، فما هان عليها أن تتبرم منه أو تتولى عنه ، بل احتملت راغمة كل هذا ، لأن العظمة ، وإن كانت خشنة جافية ، فليس من اليسير على النفس أن تبغضها وتنصرف عنها،ذلك لأن أثرها الباهر وفعلها الساحر يستزيد المحبة أكثر مما يستولد الكراهية، ومن طبيعة الأشياء أن يجرى الشيء فى مجراه أسرع مما إذا تحول إلى سواه .

ولعلك تسائل نفسك : ما بال هذا الرجل ـ نابليون ـ قد أساء إلى (مدام دى ستال) فترفع وتمنع وتباعد وهو لا يرى منها إلا الاكبار له ، والكلف به ، والازدلاف إليه ؟!

أما نابليون ، فقد تستطيع أن تلتمس له العذر إذا علمت أنه لا يحب هذا النوع من النساء اللائى استولت عليهن الأطماع وجلت بهن الرغائب ، فما كان يود أن يتحرى فى المرأة غير صفاتها ومحاسنها النسوية من جمال ووداعة ودلال ، وعدا هذا فليس إليه من سبيل ... فضلا عن هذا فقد خاف نابليون من (مدام دى ستال) طيشها واندفاعها الذى كثيراً ما جر الويلات حتى على معارفها ورفاقها ؛ ثم إنه يعلم ـ خلا هذا وذاك ـ أنها خطرة ، إذ قد طلب إليها أن تغادر فرنسا سنة ١٧٩٥ ، وأنه قد صدر قرار من حكومة الادارة فى ٢٢ ابريل سنة ١٧٩٦ بالقبض عليها إن هى سمحت لنفسها بدخول فرنسا ؛ ثم كان بعض التسامح فلم يضيق عليها منذ ذلك الحين ، إلا أنها فى الوقت نفسه كانت مهددة بالنفى والاقصاء عن فرنسا ، واضطر (بنيامين كونستانت Benjamin Constant) صديقها الصدوق إلى أن يكتب إلى رجال الادارة يرجوهم أن يصدروا قراراً لا يقيد صاحبته (مدام دى ستال) بمغادرة فرنسا أو الاقامة بها .

رأى نابليون وقتئذ أن لا يثاقل حكومة الادارة بأطماعه التى فطنت إليها وهى أشدما تكون حيفة منها ؛ وما كان منه إلا أن تكلف القناعة والزهادة فى الأبهة ومظاهر العظمة، ووصل الأمر إلى أن قيل عن منزله بشارع (شانتريين Chantereine) : إنه كان بسيطاً صغيراً ، خلواً من مظاهر النعيم والترف .

ولقد كان يخرج نادراً جداً من غير أتباع ـ فى عربة عادية يجرها جوادان ، وإذا أراد الملهى ذهب إليه وادعاً هادئاً حتى يصل إلى (الفوج) المعد له وهو يحاول أن يتحاشى الأنظار ؛ ولقد كان ـ فيما ذكرنا ـ محبا للعلم والعلماء ، كان يتكلم مع (لاجرنج) و (لابلاس) فى الرياضيات ؛ وكان يتحدث فى ما وراء الطبيعة مع (سييس Sieyès) ، وفى الشعر مع (شنيير) ، وفى السياسة مع (جالوا) ، وفى التشريع أو القانون مع (دونو Dunou) ؛ ولقد سئل مرة وهو فى إيطاليا عما سيكون من أمره لو أنه أحرز الانتصار ، فأجاب : « سأوى إلى خلوة أنصرف فيها إلى العمل حتى يتهيأ لى الشرف يوماً ما فأصبح عضواً فى المجمع الوطنى » ؛

وفعلا كان هذا العزم العسكرى محققا لرغبته تلك ؛ فاختير عضواً فى المجمع ، وبهذه المناسبة كتب كتابا إلى الرئيس (كاموس Camus) هذا نصه :

« يشرفنى التصويت من جانب رجال المجمع الممتازين ، وإنى أحس تماما أننى قبل أن أكون رفيقا لهم سأظل مدة طويلة تلميذهم ، فان الغارات الصادقة التى لا تفضى إلى مأساة وحيث لا يتمثل فيها فعل القساة ، هى تلك التى يشنها الانسان على الجهل » .

هذه كلمات خالدة قد يستكثرها الانسان على جندى باسل خرج من الحروب ظافراً قاهراً تنير الزهو والتيه بالرغم منه يستكثرها ؛ بل يستغربها ؛ لأنه ـ بلا تردد ـ قد خلع رداء الغرور والاستكبار ، وقنع ـ إن لم نقل خضع ـ للعلم وما له من شرف وفخار .

لا عجب بعد هذا إذا استولى الاعجاب على رجال المجمع ، وعلى (مدام دى ستال) بنوع خاص ؛ ولكن هذا التقدير من جانب (مدام دى ستال) ، وذلك التقرب والتودد إليه كان — إلى حد ما — خافيا ، وشاءت هى أن لا تحمل هذا الوزر ، فجاهرت وصارحت ، حتى إذا ما أخفقت عادت إليه فحملت عليه ؛ وسأذكر إلى أى حد كانت المصارحة فى خطب الود ، وسترى كيف كان تطفلها ومماحكتها ، وإليك ما يثبت ذلك :

فى الاحتفال الذى عمد فيه (تاليران) إلى تكريم القائد بونابرت ؛ بدا على نابليون أنه كاسف البال كثير التفكير ، وظل هكذا حوالى الساعة أو الساعتين ؛ وفى هذه الأثناء شقت (مدام دى ستال) الزحام إليه ؛ ولما أن قربت منه رأت أن تسأله عن أول امرأة فى نظره بين النساء الأموات والأحياء ؛ فأجاب نابليون باسماً : « هى فى نظرى التى تنجب أطفالا أكثر من غيرها » ؛ هذه الاجابة من نابليون قد تعدها جافية بعيدة عن المجاملة ، إلا أنها تظهر لنا بجلاء رأى هذا القائد فى المرأة ؛ إذ لا يرى شيئا يحمده لها إلا إذا كان خاصاً بها وبشئونها ، أما العبقرية والنبوغ فيما ليس بسبيلها ، فذلك ما كان يمقته أشد المقت .

ورأت مرة بعد هذه أن تسأله : هل هو يحب النساء ؟ فما كان من بونابرت إلا أن أجاب عن ذلك بأنه يحب من النساء امرأته .

ومرة ثالثة ـ فيما ذكرته (المموريال Mémorial) ـ دخلت (مدام دى ستال) منزل نابليون فى شارع (شانترين Chantereine) ، ولم تقتصر على ذلك ، بل توغلت فيه حتى بلغت غرفته الخاصة ؛ ورآها نابليون قادمة عليه فأراد أن يستوقفها ويعتذر إليها بأن لباسه دون أن يستره ، ولكن (مدام دى ستال) ابتدرته قائلة : « هذا لا يعنينى ، إذ العبقرية لا جنس (١) لها » .

---

(١) الجنس يعنى الذكورة والانوثة Le génie n'a pas de sexe .

أرأيت إلى الجرأة كيف أوصلت (مدام دى ستال) إلى حد أنها تدعو نابليون فى منزله ، بل فى غرفته الخاصة دون سابق استئذان ؟

قد نعد هذا القول مبالغة ، ولكنه - على كل حال - غير بعيد الاحتمال والتصديق إذا عرضنا وذكرنا طائفة من أساليبها فى هذا السبيل - سبيل التلطف واستجداء العناية والتقدير - مما لا يسمح المقام بالافاضة والتوسع فيه .

ولما يئست (مدام دى ستال) من حمل بونابرت على احترامها كما تريد ، رأت أن تتنكر له ، وعمدت أخيراً إلى مضايقته ومناهضته ، حتى اضطر نابليون يوماً ما إلى أن يبعث أخاه (يوسف) رسولا ووسيطا كى يسود حسن التفاهم بينه وبينها ؛ وذهب الوسيط يؤدى الرسالة قائلا لـ (مدام دى ستال) :

« إن أخى ليشكو منك ، ولقد كرر لى أمس قائلا : لماذا لا تميل (مدام دى ستال) ولا تطمئن إلى حكومتى ؟ الأجل المبلغ المودع لأبيها ، وسآمر به لها أم لأجل الاقامة فى باريس ؟ وسأرخص لها بها ... بعد هذا ماذا تريد ؟ » .

ولقد أجابت (مدام دى ستال) عن هذا القول فى عزة وأنفة وتيه :

« ليس الأمر متعلقا بالرغبة والارادة ، وإنما هو يتعلق بالتفكير » .

وعاد الرسول ؛ وما كان نابليون يظن أن رسالته سيقدر لها هذا المصير ، حيث لوح داعيا إلى السلام ، وحيث تنمرت معلنة الحرب .

وقد نرى من العجب أن يأسف نابليون لذلك ، وأن يراه أخوه يوسف هكذا ، فيقول له: « لو أنك أظهرت لها قليلا من التلطف ما رأت بداً من تقديسك » ؛ وهذا هو الواقع ، وهذا ما يجب أن يكون لو أن نابليون راعى القصد والاعتدال فى امتهانه لها ومقابلته إياها بكل صد وإعراض .

وعند ما رحل بونابرت فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ من طولون ليقوم بالحملة على مصر ، كانت (مدام دى ستال) لا تزال تحمل له بين جوانحها كل محبة وتقدير ، إذ كانت تتمثله بطلا من الأبطال الوهميين ، أو حلقة اتصال بين الانسانية والألوهية ، فلا يدانيه الاسكندر ولا يشابهه قيصر ؛ ووصفته بأنه « رجل الحرب الباسل ، والمفكر الأريب ، والعبقرية الخارقة » ، وإذ ذكرت العبقرية الخارقة ، فنحن نذكر بهذه المناسبة أن نابليون كان إذا أراد أن يمضى قراراته كتب هكذا : (نابليون القائد العام - والعضو بالمجمع الوطنى) ؛ إلى هذا الحد كان بطل الوقائع والحروب لا يظن نفسه بطلا هازما إلا إذا ساهم فى بطولة العلم ، فكان أيضاً عالماً ! !

ولم تكن (مدام دى ستال) بالرغم من رضائها ووفائها لنابليون فى ذلك العهد تتجاوز عن ما أخذه ؛ فقد عابت عليه حدينا دار بينه وبين « المفتى » فى هرم (كيوبس) ، ومما جاء

في هذا الحديث قول نابليون : « القوة لله ! لا إله إلا الله محمد رسول الله ... إن الخمر المغصوب ليستحيل رماداً في فم الشرير الغرير ... الخ » . ولعلها تعيب عليه هذه المداخلة والمهادنة التي فيها كثير من الخداع إن لم نقل أوفر قسط منه ، ولعلها تعيب عليه أيضا هذه الجرأة على الحقيقة والواقع . فهو يدعي أو يتظاهر بالاسلام وهو ليس بمسلم ، وينتحل الصفة والتورع عن الاغتصاب وانتهاب الحقوق وهو الجائر المتهجم .

رأى نابليون أخيراً أن (مدام دي ستال) هي بوق الشهرة ، وهي أيضا بوق التشهير ، ورأى — على هذا الاعتبار وفي ذلك الحين — أن يجاملها ويلاطفها ، ولكن — لكي يتعرف تلك النفسية وعلى ماذا تنطوي — تراه قد اطلع على مؤلفاتها ، وهو من غير شك وبنوع خاص قد طالع كتابها الأخير « De l'influence des passions » في تأثير الأهواء ؛ ولقد تلقت (مدام دي ستال) من أبيها (نكر) من أجل هذا الكتاب الرسالة الآتية بتاريخ ٤ مايو سنة ١٧٩٩ :

« إذن فهأنت موضع الفخار على ضفاف النيل ، ولئن رأى اسكندر مقدونيا أن يستقدم الفلاسفة والمتكلمين من أنحاء العالم جميعها ، فقد رأى اسكندر فرنسة (نابليون) حرصا على الوقت أن لا يتصل بغير عقل (مدام دي ستال) ، فهو يدري مجرى الأحوال » .

ولم يكن (المسيو نكر) خاطئا ولا واهما ، فقد درى بونابرت حقا الأمور وخبر الأحوال ، فهو إذ قرأ كتب (مدام دي ستال) ، وإذ اعتاد أن يمضي بهذه الامضاء : (بونابرت عضو بالمجمع) قد استطاع بعض الشيء أن يتملق طائفة من قادة الرأي تستطيع أن تسنده وتشد أزره ، أو على الأقل تقتصد في نقده ورده عن قصده .

لنسلك ناحية أخرى نطالع القارىء فيها برأي (مدام دي ستال) السياسي في آخر سنة ١٧٩٩ ، أي قبيل عودة بونابرت : أرادت قبل كل شيء أن « تنتهي الثورة » ؛ وأن يضع الانسان حداً لها بوسائل — وليكن فيها الردع والقمع بل الاستبداد — حتى تهدأ وتفقد هذه الحماسة المستعرة .

هذا مجمل رأي (مدام دي ستال) و (بنيامين كونستانت) وغيره من المعتدلين في الرأي في هذا العهد . أو بمعنى آخر : هذا رأي الكثرة الساحقة من الفرنسيس ؛ فقد سقطت الملكية لم تهدأ ثائرة البلد ولم تجر احوالها في مجراها الطبيعي ، فكانت تتقاذفها الظروف من طرف إلى آخر . وكانت لمة تتلقفها الحزبية في كثير من التناحر ، ولقد استولى على النفوس نوع من الشك السياسي ، ولم تكن الآراء قد استقرت على شيء بعد ، وما كان للناس — إزاء هذه الفوضى — إلا أن يقنعوا كل القنع حكومة الادارة ، وأن يريحوا عنهم هذا الاستبداد « جرثومة الفناء لكل الأنظمة » .

والحق أنه لم يمر على فرنسا عهد أنحس من هذا العهد ، ولم تشرف عليها حكومة بلغت

من الاستبداد مثل ما بلغت حكومة الادارة ... عسير عليك أن تلتمس للعدالة ظلا فى النفوس وأن تجد للقانون شيئاً من الاحترام ، وأن ترى وسيلة من الزجر ليس فيها كل وبال وتكال . كان السخط يحل حيثما أراد : على المعتدلين ، على اليعقوبيين ، على الملكيين سواء بسواء ، فضلا عن الجرائد تصادر ، والصحافة ورجال الطباعة والملاك عرضة للمخاطر . . هذا وقد أنشئت لجان حربية دائمة ، وأصبح يحاكم محاكمة عرفية كل قسيس يشتبه فيه ، أو تحوم مظنة الشك حوله ، فثارت ثائرة اليعاقبة إزاء الخطر الخارجى والداخلى وطلبوا إعلان « أن الوطن فى خطر » ، وكادت الأمور تسير من مصير سيء إلى مصير أسوأ لولا أن هدأت النفوس نوعاً ما عند ما انتصر (ماسينا Massena) فى (زيورخ) ، ولكن هذه الهدأة لم تكن أكثر من مهلة عادت النفوس بعدها أشد نشاطا وتوثبا ، وقد أحزنت هذه الحال (مدام دى ستال) وآسفت (بنيامين كونستانت) الذى كان يريد « التمتع بالحرية إلى أقصى حد ، وبكل أنواعها وأشكالها » .

ولئن سلم كل منهما بانقلاب ١٨ برومير سنة ١٧٩٩ ، أى (نوفمبر) فذلك على فكرة إنشاء حكومة جمهورية فى فرنسا أساسها احترام القانون ، ثم التسامح والانصاف بين الناس ، ولم يكن يعلم كل منهما أن هذا الانقلاب قد مكن لـ(نابليون) فى النفوذ ووطد له السلطان ، ورأيا بعد هذه الأطماع أن الفرصة قد سنحت لاعلان قولهما والتلويح بها فى وجهه ، ولقد رأت (مدام دى ستال) بنوع خاص أن قد حان لها الوقت لتواجهه مواجهة العدو العنيد ذى البطش الشديد ، ولم تكن (مدام دى ستال) فى الواقع وبالرغم من كل هذا كارهة لنابليون بحيث تريد به المكاره ، وإنما هى رأت من نابليون ما أكرهها على هذا المسلك ، مسلك المعارضة والمناهضة ليس غير ، وليس يفوتنا أن نقول إن (مدام دى ستال) كانت معتزة بأبيها ثورة بنفسها ، وقد شاءت أن تمد لها (صالونا) لا تكون خاطئين نحو مبالغين إذا قلنا إنه كان برلمانا ثانيا . واستمرت (مدام دى ستال) فى طريقها غير هيابة من شيء ، من وعيد وتهديد ، أو إبعاد واضطهاد .

ولنختم الموضوع بسؤال نلتمس الاجابة عنه : أما هذا السؤال فهو : هل أنصفت (مدام دى ستال) بونابرت ، وهل صدقت فى كل ما قالته عنه ؟ ؟ . أما الجواب عن هذا فيما قال (بول جوتيير Paul Gautier) صاحب كتاب (مدام دى ستال ونابليون) فهو :

« إن مدام دى ستال طالما اشتطت فكانت أحيانا غير منصفة لنابليون ، وكانت أحيانا أخرى جائرة فى الحكم على فرنسا نفسها ، وقد كانت امرأة تتحكم فيها الأهواء ، فكانت شديدة الفطنة نافذة البصيرة إذا لم تكدر حكمها الأكدار ، وكانت غير متبصرة ، بعيدة عن التقدير إذا ألح عليها الهوى والرأى الفطير » .

عبد العزيز الشربينى